

حياة الطلبة في المدارس التركية

كان الطلبة في المدرسة على صنفين: طلبة الطب وطلبة البيطرة. وكان كل فريق يكن العداء للفريق الآخر. كنت في ذلك الوقت مازلت في السابعة عشر من عمري. في هذه المدرسة كان الطلبة الاشداء ذوي الطابع الاجرامي يحمي كل منهم طالبا صغيرا جميلا. لكن الحمد كل الحمد فان النظام الشديد في المدرسة كان يمنع الاعمال الرديئة.

بداية قراءتي للادب القومي

وبدأ اهتمامي في هذا العهد بقراءة الادب. كانت اعمال الادباء الاتراك (النور بين) مثل أعمال ضيا باشا ونامق كمال ممنوعه. لكني كنت اقرأها خلسة. كنت أكن الحب لنامق كمال لانه كان يعطي احاسا عظيما بالحرية والوطن. في ذلك الوقت كانت الكتابة في أوربا متجهة ضد (السلطان) عبد الحميد (الثاني). وكنت استطيع الحصول عليها واقرؤها.

اشتغالي بالادب والسياسة

ضعفت معتقداتي الدينية في هذه الفترة. بدأت بتحصيل العلوم الطبية. كان ذلك في العام ١٣١١ بدأت فترة نضجي وتعقلي لكني مازلت مشغولا بالادب وقراءة أدباء اوربا وشعرائها. كنت أجد لذتي في أدباء اوربا اكثر مما أجدها في قراءة أدباء بلادي. وانشغلت اكثر بالسياسة.

القومية الجركسية والقومية التركية

كنت أثناء دراستي هذه أيضا أذهب إلى سينوب وهناك كان يوجد بعض الاشخاص المنفيين بسبب اشتغالهم بالسياسة. كنت اخالطهم واتكلم ضد السلطان عبد الحميد وضد الاستبداد. تعرفت بأحدهم وكان اسمه رؤوف. كان جركسيا قحا. كان يتحدث في قضية القومية الجركسية و يتكلم مهاجما القومية التركية فغضبت منه. كانت القضية التركية عندي فوق كل شيء. وكان احدهم ألبانيا.

كنت على اتصال بهؤلاء المنفيين. كما كنت على اتصال ببعض الشباب من سينوب، وكنت اشتم معهم واسب في عبد الحميد وادارته وحكمه.

السأم من الفلسفة

أحببت في هذه الاثناء، الفلسفة. قرأت لمجموعة من الفلاسفة مثل لامارك وداروين وبوخنر وهيجل وشوبنهادر وسبنسر لم افهم بعض اعمالهم. لم أجد في حياتي أحد يرشدني وسرعان ما أصابني السأم من الفلسفة. مسألة وجود الله، ليست من شأني، لا انكر ولا أؤمن. وتراجعت من مواصلة القراءة في الفلسفة.

المطبوعات المضادة لعبدالحميد

كنت مع هذا أشتغل بالسياسة. كانت هذه الفترة هي فترة رواج النشريات ضد عبدالحميد في اوربا وفي مصر. كانت (الشخصيات المعارضة لعبد الحميد) مثل احمد رضا بك (من زعماء الاتحاديين ومراد بك صاحب جريدة الميزان (الذي كان ضد عبد الحميد ثم عاد لمناصرته) وصباح الدين بك (صاحب سياسة اللامركزية) متواجدون في اوربا و يصدرون بعض الصحف في الخارج وتأتي إلى استانبول لنقرأها خلسة.

الضابط العربي صبري يساعدنا ضد عبدالحميد

وفي المدرسة كان ضابط الداخلية ملازما عربيا أسودا. وكان رجلا طيباً جدا. كان يتعامل مع الطلاب كأب حنون. استدعاني ذات يوم الى المطعم وقال لي: «يا بني! أنت ذكي ومجتهد واخلاقك طيبة وستنفع الوطن. لكنك تشتغل كثيرا بالسياسة. الادارة تعلم بذلك وتتعقبك وسيصيبك مكروه. ابتعد عن السياسة، والا فان طردك من المدرسة مؤكد. وأنا أتألم لك. اسمع نصيحتي فأنا مثل والدك. اني ايضا مثلك أئن من الاستبداد، فماذا لو صبرت وكل شيء بوقته». أيقظني هذا الحديث. اسم هذا الضابط صبري. كان الرجل منضما لجمعية الاتحاد والترقي منذ تأسيسها، كان ينقذ الطلبة دائما حيث يخبر أي طالب يكون البوليس قرر مهاجمة حجرته، كان يخبره حتى يخفي الاوراق المحظورة. وأخيرا صدر قرار بنقل الضابط صبري الى اليمن، ومع انه تمكن من الهرب منها إلى مصر إلا أنه مات جوعا في حقل قطن بجوار الاسكندرية. انه من اكبر شهداء الحرية.

المدرسة الطبية: أول خلايا الاتحاد والترقي

كانت مدرستنا الطبية هذه قد ضمت أول تشكيل لجمعية الاتحاد والترقي، ومن المنتمين اليه اسحق سكوتي، وشرف الدين نعمومي وغيرهما.

أصبحت طبيبا لكني فقدت الخلق الطيب

كان دور طلبة الطب هاما جدا في إعطاء الناس مفهوم الحرية (على المعنى الغربي) وعند تخرجنا رأيت الحياة الاجتماعية والعملية وقد تشبعت بالقباحات. انتهت منى مجموعة من العادات الطيبة والاخلاق الكريمة والفضائل التي اكتسبتها بجهد فائق. هذه المجموعة من الاخلاقيات انتهت من تلقاء نفسها، وتركت بعضها الأخر مختارا. كذبت أيضا، ولازمني هذا الكذب بعد ذلك خاصة في الاعمال الدبلوماسية.

من الصدف الغريبة أن ديوجين أيضا سينوبي من بلدي سينوب. درسنا في المدرسة: الكيمياء والفيزياء والتشريح والنباتات وامثالها. كان يدرس لنا الكيمياء كل من علي رضا وواصل ناحوم.

الطلبة والحرب بين اسبانيا وامريكا

عندما كنت أضع اقدامي في الطبية (عام ١٣١١ رومية) حدثت واقعة قنبلة الارض الذي حاول بها قتل السلطان عبدالحميد — في هذا الوقت قامت حرب تساليا، كما حصلت الحرب بين كل من اسبانيا وامريكا. وانقسم الطلبة الى قسمين واحد مؤيد لاسبانيا والآخر لامريكا. وكل فريق يقول بانتصار البلد الذي يؤيده. كان احد الطلاب يؤيد اسبانيا حتى اطلق عليه زملاؤه اسم الاميرال جرهرا وهو اسم الاسطول الاسباني، وعندما هزمت اسبانيا، اخذ الطلبة يسخرون به، اصبح هذا الطالب من بعد، من الاتحاديين. كان مجنونا، ولم يكن يفهم في الطب شيئا.

أخذت الحكومة في تلك الفترة في تشديد حملتها ضد المعارضين، وكثرت عمليات النفي والسجن كان اغلب الطلاب في الطبية يشتمون السلطان.

الخمر والثورة

(ذات يوم) جمعة ذهبت مع بعض الاصدقاء نتنزه حيث يقع قصر ولي العهد يوسف عزالدين، و يقع هذا القصر في جامليجة باستانبول، و بالقرب منه أكلنا وشربنا الخمر وبعد ذلك اخذنا في الصباح متجهين بانظارنا نحو القصر. قلنا الكثير وقتها! شباب! كانت نار الحرية وعشقها قد اخذت بنا. هتفنا بها ولم نخف. وذات يوم اربعاء وعلى ضوء القمر ذهبت مع حوالي عشرة من الاصدقاء طلبة الطبية الى التنزه. اخذنا معنا اكلنا وشرابنا: اللحم والطماطم والخبز والخمر. أوقدنا نارا بين اشجار الصنوبر، عملنا من اللحم كبابا، أكلنا وشربنا الخمر التي معنا، ودارت رؤوسنا، وفورا اخذنا ننطلق صائحين بأشعار وقصائد من كمال (شاعر الحرية)، ثم قام كل منا بالقاء خطبة في الحرية، لعنا الاستبداد، هاجمنا عبدالحميد، تولتني نوبة حماس فألقيت خطبة طويلة القيتها بأعلى صوتي حتى بح.

ثم أخذنا في التجول بين اشجار الصنوبر حتى الصباح.

الخمر والالحاد

كان لنا زميل في الدراسة، احببته كثيرا، اسمه رشيد وكان من اتراك منطقة الاسكندرون. ذكيا كان وكثير الفتن، مجدا كان ومحبا للفلسفة، معرفته للفرنسية لا بأس بها، لكنه كان فقيرا جدا. وكان ملحدا، كان ضد الاستبداد، وكان عاشقا للانكليز، و بهذا الحب كان يحاول تعلم الانكليزية، ومع ذلك لم يكن يحب العمل. كان يبيع لي كتبه، ليأخذ ثمنها و يشرب به الخمر.

الخديوي عباس حلمي يقضي على الثوريين

نفت الحكومة شيخا من البكداشيين بسبب اشتغاله بالسياسة ضد الحكومة يدعى هذا الشيخ احمد بابا (بابا: تعني الشيخ في الطريقة البكداشية) نفوه الى سينوب، كان رجلا ذكيا صاحب ثقافة واسعة. كنت أشعر بالسرور كثيرا بصحبته. كان هذا الرجل قد فر الى مصر عندما قبضوا عليه بحكم طريقة عمله بالسياسة. كان الخديوي عباس حلمي باشا مواليا لعبدالحميد في الخفاء، وفي مصر في ذلك الوقت الكثير من افراد جماعة تركيا الفتاة (وكانوا ضد عبدالحميد).

أخذ عباس حلمي يصادر صحف تركيا الفتاة في مصر، لكن الانكليز كانوا يسمحون بصدورها من جديد. أخذ الخديوي يخدع هؤلاء الثوار احيانا فيرسلهم الى استانبول حيث يلقاهم السجن والنفي.

وذات يوم استطاع رجال الخديوي ان يخدعوا احمد بابا، وادخلوه السفينة التي كانت على وشك الاقلاع من الاسكندرية الى استانبول، وبالتالي تم القبض عليه. وعندما وصل احمد بابا الى استانبول، حبسوه ومن ثم نفوه الى سينوب.

الدروس الدينية في الطبية لم يحسنوا عرضها

كان مقررا علينا في الطبية درس العقائد الدينية، لذا كان يدرسه لنا رجل معمم. لم أكن احب هذا الدرس بل أثور عليه. لم يكن السبب في ذلك مابي من إلحاد. السبب انهم اعطوا هذا الرجل كتابا مليئا بالمديح للسلطان وبانه الخليفة ظل الله في الارض، كتبوا له هذا بدلا من تدريس الدين، فنتج عن هذا توتر أعصابي. كان يمدح لنا السلطان بدلا من تدريسه الدين.

مدى ميل الطلبة الثوريين للمعلم

شيء عجيب! كان لي بعض أصدقاء في الفصل يقولون: «آه لو نتخرج من هذه المدرسة. آه! لو تخرجنا لاحرقنا هذه الكتب المقررة علينا وتحررنا منها» وبالفعل قام واحد منهم بأخذ كل كتبه ووضعها في المدفأة واشعل فيها النار.

عملي في الطب

في عام ١٣١٧ رومية اصبحت طبيبا بدرجة نقيب (يوزباشي) اهم شيئين في رقي الناس: العلاقات الاجتماعية والتنظيم.

فتاة يهودية تعلمني الفرنسية

سكنت في بنسيون تملكه أسرة يهودية يتكلم افرادها اللغة الفرنسية. كان فيها فتاة هي ابنة هذه الاسرة، وكانت هذه الفتاة تعطي للعائلات دروسا في اللغة الفرنسية، لغتها الفرنسية ممتازة، وبهذه اللغة كنت أتحدث معها. أظهرت لي هذه الفتاة اهتماما. سكنت عندهم قرابة ستة اشهر، اصبحت اتكلم الفرنسية بدرجة كافية (من جراء سكني عند هذه الاسرة).

وجدت أن هذه الفتاة قد تجاوزت حد الاهتمام العادي بي. وجدت ايضا ان هذه الفتاة اليهودية غير مناسبة لي، أنني لست في ظرف يسمح بالزواج. لا مكسب بعد، والمستقبل مازال مجهولا. كما ان من شأن هذا عرقلة سير العمل. اذن فهذا الامر لا يتفق وصالحي. خرجت من هذا البيت. ومع ذلك لم تتركني الفتاة. واخيرا، ذهبت هي الى باريس. فظلت ترسل الي البطاقات من هناك.

الاساتذة الالمان في المدرسة الطبية

بادىء ذي بدء دخلت شعبة الداخلية في الدراسة العالية. كان امبراطور المانيا (ويلهلم) قد ارسل الجراح (رايدر) الاستاذ بجامعة بون الى تركيا، منحته الحكومة العثمانية رتبة الباشا. اما أنا فقد كنت اعمل مع الاستاذ (دايكا)، لكني كنت اتابع دروس رايدر بشوق زائد، كان الاساتذة الالمان يختارون خمسة او عشرة من الطلاب النابغين ليكونوا مساعدين لهم.

السفير الالماني يتدخل لالغاء تعييني في البصرة

انتهت سنة التدريب هذه، حصلت على درجة جيد جدا. عينت في البصرة، خفت. انزعجت. في هذه الاثناء اختارني الالمان لاكون مساعدا لهم. فرحت جدا. لكن قاضي السر عسكر لم يرض ابدا بهذا. اصر على ارسالي الى البصرة. نجح الالمان (أخيرا) في الضغط على الحكومة واستطاعوا تنفيذ رغبتهم في ان اكون مساعدا لهم. كان القائد العام في ذلك الوقت هو رضا باشا، هذا الرجل الذي لم يستطع الاصرار على كلمته (بتعييني في البصرة) هو الذي تزوجت بابنته من بعد.

ولأنني كنت انام في المستشفى فقد نجوت من دفع ايجار السكن، في ذلك الوقت صدر قانون بالتعامل النقدي الورقي بدلا من الذهب.

قرار تعييني في اليمن

بعد عام صدر أمر تعييني في اليمن. بذل الالمان كل جهودهم حتى انقذوني من هذا التعيين. بعد عام آخر، صدر القرار بتعييني في اليمن ايضا. بذل دايكا كل جهده لانقاذي من هذا التعيين لكنه لم ينجح. تدخل السفير الالماني (لدى الدولة العثمانية) قال للسلطان ان المستشفى في حاجة الى رضا نور، بدونه يصبح العمل صعبا. ارجو بقاءه مساعدا بالمستشفى. وصدرت الارادة السلطانية بذلك، كان ذلك بفضل دايكا الذي طلب هذا من السفير. لذلك فانني اعتبر (دايكا) استاذي وولي نعمتي في نفس الوقت.

كنت اعمل في المستشفى كثيرا. لم اكن اخرج للتنزه حتى يومي الجمعة والاحد رغم ان المستشفى كانت تأخذ عطلة في هذين اليومين كنت اشتغل في المعمل، وكنت أجد في ذلك لذة كبيرة.

النشر المشترك مع الالمان

ثم تخصصت في الجراحة. كان (ويتنج) قد علمني. ثم بدأنا ننشر ابحاث مشتركة نقوم بعملها معا. كنت اشتغل على الامراض الهامة. اكتبها بالفرنسية واعطيها له. كان هو يصححها ويترجمها الى الالمانية وينشرها، كما اسند الي ويتنج مجموعة من العمليات الجراحية.

السلطان عبدالحميد يتعهدني برعايته

كنت وانا اعمل مساعدا بالمستشفى اكتب كتابي «فن الختان» اخترعت آلات لعملية الختان واصولا عملية خاصة بهذه المسألة، كان لي اتصال وتعارف ببسيم عمر باشا. وكان بسيم عمر باشا هذا صديقا لسعيد باشا الطبيب الاول للسلطان. تحدث بسيم باشا الى سعيد باشا عن كتابي، نقل هذا، المسألة الى السلطان، طلب السلطان ان يقرأ الكتاب، فاستدعاني سعيد باشا واخبرني برغبة السلطان. (اعددت الكتاب نسخا) وقدمته للطبيب الاول الذي قدمه الى السلطان. سر السلطان عبدالحميد بالكتاب واصدر ارادته السلطانية بطبع كتابي بالمطبعة العسكرية وترقيتي الى رتبة (قول اغا).

سعدت جدا بطبع الكتاب على حساب الدولة. فقد كان هذا الكتاب لو طبعته على نفقتي سيكلفني مالا كثيرا جدا. نجح كتابي نجاحا كبيرا، تحدثت عنه الصحف، لذلك كانت سعادتي كبيرة كما حثني هذا الى مواصلة البحث والكتابة، عندما كنت اجد اسمي مكتوبا في الصحف كانت السعادة تستولي على كياني، وللآن لا استطيع ان انسى حلاوة هذا.

الجمعية الطبية الشاهانية

كنت انشر ابحاثي الصحية والطبية في الصحف. وكانت الجمعية الطبية الشاهانية تقع في حي (بك او غلو). كانت هذه الجمعية تصدر مجلة باللغة الفرنسية. كتبت مقالة بالفرنسية وارسلتها الى هذه المجلة فنشروها. كما انتخبوني عضوا بهذه الجمعية، حتى ذلك الوقت كان كل اعضاء هذه الجمعية من الاطباء الاجانب. لم يكن هناك احد من الاتراك تقريبا.